الاستاذ عبد العزيز سيد الاهل
مبعوث وزارة المعارف المصرية للتدريس في الكلية العاملية في بيروت

بيت ابي طالب

أوحت إلي ليالي عاشوراء علم ما لم اكن أعلم ، فتفتحت أمام عيني مظاهر واهتزت في نفسي مشاعر يرجع الفضل فيها إلى الاستاذ الصديق خطيب « الذكرى » محمد نجيب زهر الدين . فاليه وإلى عبقريته أهدي كلمتي وقد كانت خطبة في عاشوراء بالكلية العاملية في بيروت

قال همام بن غالب : وخير الشعر أكرمه رجالا . وإن هماماً لعلى صواب ، ولكن هناك ما هو أفضل من قوله وأصوب ، وذلك إذا قيل : وخير القول أعظمه مقاماً . ففي مثل موقفي هذا يشرف الكلام — مهما كان غير متألق — ويشرف القائل أيضاً لأنه ما من فخار يزين الجبهة والمفرق فوق هذا ، وما من ذخيرة تحسب للمرء فتغنيه بعد هذه الذخيرة من المجد الباذخ والشرف الرفيع ، وما أظن القائل في عاشوراء خيراً من السامع فكلهم في الشرف على سواء ، وحسب من لم يستطع أن يتكلم أن يصمت أو ينصت أو يذرف دمعة أو يبذل صدقة وما هو بعدُ بملوم ، ورب دمعة أدل على المعنى من إفصاح ، ورب صدقة أدل على النفس من لحن البيان!

●

ولم يسبق لي أن عرفت عاشوراء بمثل ما عرفته اليوم ، بل أعدّل عبارتي فأقول : إنه لم يسبق لي أن شعرت بعاشوراء مثلما شعرت به هذا العام ، ذلك انه لايكفي أن يعلم الإنسان بالشيء لأنه يظل في مدرجة الجهالة أو يكاد ، ما لم يحطه عرفان وشعور ، وإذن فقد كان من حسن حظي أنا وحدي — على الأقل — أن أصل إلى هذا المكان الذي أنا فيه اليوم بين الشيعة لأتذكر ما نسيت ، ويتدفق حول معرفتي فقه وشعور ، وأعلم من جديد علماً لا تبليه البدعة أن يوم عاشوراء كان يوماً عصيباً ورزءاً ثقيلا ، وانه صار بعد الرزء والمصيبة ذكراً مجيداً وبعثاً جديداً .

●

ولا يمسني أحد بعتب إذا قلت : إنني منذ اليوم قد كشفت عن عينيّ حجاباً ثقيلا ، وعلمت وثيق العلم أن يوم عاشوراء ليس يوم الشيعة فحسب وإنما هو يوم الذين لم يتشيعوا بل هو فوق ذلك للذين آمنوا والذين لم يؤمنوا ، وما أظن مسلماً أو غير مسلم — لاينفجر بالدمع باكيا — إذا قرأ قصة الحسين عليه السلام ثم اعلم بعد ذلك أن العالم كله ولو في قصة الحسين وحدها لا يمكن إلا أن يكون مسلماً ولا يمكن إلا أن يكون متشيعاً . . .

وإنه لحقاً منعطف مظلم في تاريخنا العجيب ، دونت الأيام منه ما استطاعت وما لم تستطع لم تدون ، وما أظن هذا المنعطف يضيء لأني أخشى أن تضن الرحمة عليه بشعاع منهـــا فقد حدث فيه أكثر مما يقول الإنجيل عن السيد المسيح !

●

وما كان يوم عاشوراء إلا أحد الأيام المعدودة — أو التي لا تعد — لبيت أبي طالب ، فقد رأيته كله يتقدم للتضحية والابتلاء فرادى فرادى أو يتكاثر أهله على الموت تكاثر النعم الهلكى من العطش على غير الماء ، لأن بيت ابي طالب حين عبد الله لم يعبده على حرف وإنما عبده حق عبادته فذكر نفسه حين نسي الدنيا ، ونسي نفسه حين ذكر الله وعرف انه وحده مولاه!

اما ابو طالب فقد نافح عن ابن اخيه حتى كاد يهلك ، وإني لأستغفر الله فما نافح عن ابن اخيه لعصبية جاهلية ، وإنما نافح عن ابن أخيه ! فقد كان له أبناء اخوة كثيرون ، إلا أن واحداً منهم لم يكن نادرة الفلك وبكر عطارد إلا واحداً ، ولم يكن منهم من سمي محمداً إلا محمداً

وأما ابن ابي طالب فقد شرى نفسه ابتغاء مرضاة الله وتلفع ببرد النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الهجرة ليغري على التضحية والفداء ، وكأن ما تمناه من طلب الموت طلب الموت في سبيل الله وهو صبي كان له قدراً راصداً ، فقتل حين كان إماماً بيد شقي من عصبة شريرة لم تفرق بين الصنم وبين العلم ، وازداد بغيها شؤماً وتعاسة حين أخطأ الأصنام وأصاب الإمام !

واما الحسن فكانت قبلة النبي في ثغره ترياقاً ، كلما دُسّ له السم مات السم من ترياقه حتى حمّ الأجل فأوردته الحية مورد حتفه ليكبر الخليفة في دمشق تكبيرة الطمأنينة ، ويتنفس تنفس الراحة بعد الصعداء .

●

وهؤلاء ذهبوا فرادى ، ولكن التضحية أبت إلا أن تضخم في بيت ابي طالب ، وأبى الفداء إلا ان يعم ويستفحل ، فورد الحسين واهل البيت مشارع الموت جماعة ، وتكاثروا عليه جملة ، وإن يكونوا قد تحطموا اجساداً ، فما يضر السيف إن أقام الشريعة أن يتكسر السيف وما يضر الميزان إن أنصف الحق ان يتحطم الميزان !

وإنني لأفزع أن أعاود قصة الحسين قراءة أو سماعاً ، ولا أكذب شعوري ولا الحقيقة إذا قلت : إن قريشاً في جاهليتها استحيت أن تغش أبا طالب ، وعبدة الأصنام في طاغوتهم استحيوا أن يقتلوا عليا في بُرد ابن عمه ، ولكن الجريمة ما لبثت أن قرمت كلما اشتد ساعد الفداء في بيت أبي طالب ، ولكنها ظلت على شيء من استحيائها فتسللت إلى أبي الحسن غيلة في الغسق ، وإلى الحسن في سم أفعى تصطنع الحيـــلة ، ثم تبرجت ولم تستحي فكشفت

وجهها سافرة لتلقى جملة بيت أبي طالب ، وفي الحسين وأهله من الصبية الضعفاء ومخدرات النساء ، تبرجت الجريمة للدفاع بحجة داحضة عن رهوة من الدنيا كشعلة السراج الباهت في زيت خبيث ، تتناوح لتنطفىء في نهاية الذبال بعد أن أرضت كل الصدور .

وظن بنو أمية أن الموت يُفني وأن بيت أبي طالب قد امّحى ، ولكن الموت لا يفني إلا من أفنته الحياة من الضعفاء والجبناء ، ولم تكن كربلاء إلا إيذاناً ببقاء من ظنوا أنهم ماتوا وموت من ظنوا أنهم أحياء ، وزال بنو أمية ولم يؤجل في بوارهم شفاعة من مال ولا جاه ولا جهد ولا حيلة ، وحتى النصرة والفتوح لم تكن لهم شفيعاً !

وبقي أبناء علي وذرية الحسين ، بل بقيت الشيعة في بطن كل واد وفي صدر كل سفح وفي أنف كل ربوة ، وفاحت عظام من ضحوا طيباً في أنوف الثرى ، وشذاً مع النسيم تتأرج منه العصور والأجيال !..

●

ودعوني أسأل — وقد أكثرنا الكلام عن رأس الحسين — : أين رأس يزيد وهو لم يقطع ؟

إنك لو سألت كل أرض لأنكرت حتى الارض التي دفن فيها فلعلها تهاب أن تتهم ! ولست أسأل فيه فقيهاً ولا محامياً فقد حكم عليه ابنه معاوية الثاني إذ يقول : « لقد ندم ابي حيث لا ينفعه الندم ، وشغلنا الحزن له عن الحزن عليه ، ماذا قال ؟ وماذا قيل له ؟ هل عوقب بإساءته وجوزي بعمله ؟ إن ذلك كل ظني ! » .

أما رأس الحسين فهو في كل مكان ، هو في مصر وهو في كربلاء وهو في الهند وهو في العراق وفي دمشق وهو هنا ، هو حقاً في كل هذه الأمكنة ، ومن العجيب أن يكون كل ذلك حقاً ، فحسب رأس الحسين عزة ومجداً ، وحسب الناس به عزة ومجداً أن كل أرض تدّعيه وكل شعب يفاخر به وينافس فيه !

●

وإن تعجب لأبي طالب فعليّ أعجب ، فإذا عجبت لعلي فحسين أعجب ، وأعجب منه صبية صغار ونساء حرائر ، انصرفوا وانصرفن عن مائدة يزيد وبلهنية الشام إلى وقدة المدينة وتقشف الحجاز ، فليس بهم ولا بهن من حاجة إلى طعام يزيد ، وكيف يستمرىء صحاف أمية قوم حرّموا على أنفسهم أموال الصدقات !

أما الفهم واما العلم فما زال يتسع في بيت ابي طالب ويشمل ، فكان اهله اغنى اهل الأرض شعوراً وحساً ، واعظمهم فقهاً وحكماً .

فأبو طالب رقّ شعوره فصوره حناناً وشعراً فجّر به قلب الصخر الجامد ، واخمد به نفس الشقاء الثائر .

وعلي يقول فيه ابن عمه : « انا مدينة العلم وعلي بابها » ولولا الفيض الجارف من قوله لعي الكلام على زياد وابطأت الفصاحة على قطري وعلى الحجاج !

وظل بنو علي وبنو بنيه وبناتهم دساتير الخلق والاجتماع وينابيع العلم والحكمة ، وحسبك أن تعلم ان انثى من نسائهم هي سكينة أو نفيسة « المصرية » كانت اعلم اهل زمانها فقهاً ودراية تقول في الشافعي — وهو من اذكياء الدنيا — حين جاءها نعيه : يرحمه الله ، لقد كان يحسن الوضوء . فواجراءتاه !

أما إن كان هذا علمه لو نسب إلى علمها فأحر بالنقطة ان تذوب في لجة البحر ، وبالذرة أن تتوه في وهجة الشمس ، واحر بامرأة طالبية ان تقول في الشافعي : إنه رجل كان يحسن الوضوء !

●

هذه بعض آلاء الذكرى التي نحتفل بها اليوم :

الرقة والحنان حتى تصير بيانا وشعراً .

والصبر والامتناع حتى يصير عفة وزهداً .

والعفة والزهد حتى تصير تضحية وفداء .

والخبرة والمعرفة حتى تصير علماً وفقهاً .

والعلم والفقه حتى يزري بالفقهاء ، ويغض من نباهة الاذكياء .

تلك آلاء بيت أبي طالب ، فالحفاظ عليها في ضمان الشيعة إن لم يكن في ضمان المسلمين !

●

اما انا فقد لمحت النور عن بعد ، فأقبلت عليه إقبال الربان الذي لمح ضوء المنارة في الميناء فلما دنا لاح له محيا فيه قبس من نور الحسين هو وجه « رشيد » فاستزدت به إضاءة وهداية ، وازددت به إيماناً ويقيناً ، ولست اشير اليه وحده إلا لأنه رمز الجماعة ، اما اعضاء الجمعية فهم في الفضل على سواء كالحلقة المفرغة لا يدرى اين طرفاها !

ولست أريد أن أكتسب فخراً بلا ثمن ، ولا عزة بلا فداء ، فقد جعلت نفسي — ما حييت هنا . لهذا المعهد الجديد وفاء لبيت أبي طالب وشيعة ابن أبي طالب

وأما أنت فاعلم أنك ستظل تائهاً في الظلمات كشارد الليل إن لم تنفحك من الحسين نفحة ، فتذرف دمعة ، أو تتقدم بين يديك المعونة لهذه الأهرام الشامخة التي بنوها لاحياء ذكرى الحسين ولا تطلب على التضحية جزاء ، ولا تقل ! إنهم لم يذكروني ، فماذا يجزيك العبد على التضحية ؟ أما ربي ، فعلمها عند ربي ، في كتاب ، لا يضل ربي ولا ينسى .

بيروت

عبد العزيز سيد الاهل